وما ارسلناك الا رحمة للعالمين

بقلم الاستاذ الحاج احمد بن شقرون
عميد كلية الشريعة بجامعة القرويين

زوج عبد المطلب سيد قريش ابنه عبد الله وسنه نحو الرابعة والعشرين بأمنة بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة فلم يقم مع زوجته طويلا حتى فارقها وهى حامل وتوجه في تجارة الى بلاد الشام وأثناء عودته عرج على أخواله بالمدينة فلم يمهله أجله فتوفى بالمدينة ودفن بها .

ولما تمت اشهر الحمل وضعت آمنة غلاما (حوالى سنة 570 للميلاد) سماه جده محمدا وفرح بمقدمه فرحا كبيرا فأرضعته ثويبة جارية عمه ابى لهب أياما ثم أرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية وأقام عندها في الصحراء يستنشق هواءها ويمرح فى جنباتها ويتشرب لغة العرب في صفائها وعذوبتها حتى بلغ الخامسة من عمره حيث عاد الى امه بمكة وبقي يحمل الى مرضعته حليمة كل حب واجلال ويبسط لاخت رضاع منها رداءه لتجلس عليه حين أقبلت عليه احتراما لها وتعظيما

وبقى بمكة يتلقى المحبة والعطف من جده عبد المطلب وزاد عطفه وحنانه عليه لما توفيت أمه أمنة وهو ابن ست سنوات حيث تيتم من أبويه معا ذلك أن أمه خرجت به الى المدينة فى زيارة لاخوال جده من بني النجار ولاحياء ذكرى والده عبد الله حين عودتها مرضت بالابواء وهى قرية بينها وبين المدينة نحو ثلاثة وعشرين ميلا وتوفيت بها ودفنت هناك فعاد طفلها الى مكة وحيدا حزينا ولم يلبث أن فقد جده الحنون وهو فى الثامنة من عمره فزاد حزنه واشتد ألمه لفقد ذلك الجد الذى بذل من أجله الغالى والرخيص وأكرمه ورفع من شأنه فكفله عمه أبو طالب

وحدب عليه وعوضه عن حب جده وعطفه ثم صاحب عمه في تجارة الى الشام وهو في الثانية عشرة من عمره حيث تقص الروايات أنه التقى بالراهب بحيرى الذى راى فيه علامات النبوة حسب ما هو في الكتب النصرانية.

وقد اشتغل برعي الغنم واطلق لتفكيره العنان فى جو الصحراء الواسعة وسمائها الصافية ونجومها اللامعة وهو زاهد في متاع الدنيا راغب عنه

الجامعة العامة
07 شارع عمر المختار والدعيبر - الجدال

ولضيق ذات يد عمه لكثرة عياله بعث به الى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد وكانت ذات حسب ونسب ومال وجاه وعمره خمس وعشرون سنة وصحبه ميسرة غلامها فربحت تجارته ربحا وافرا ولما عاد الى مكة بتجارة خديجة الرابحة أغتبطت به وزادت غبطتها لما روى لها غلامها ما شاهده من أحواله وما لمسه من شمائله العالية فودت أن تتزج منه وهى التى ردت أعاظم الرجال وكان عمرها فى الاربعين فعرضت نفسها زوجة له فقبل راضيا مبتهجا وبنى بها وسكن في بيتها فرزق منها الاولاد وتذوق حنو الابوة وهو فى ريعان شبابه وطهارته وعفافه وجماله وعاش معها عيشة راضية مطمئنة زكية

وفى السنة التى أعادت قريش فيها بناء الكعبة بعد أن طغى السيل عليها وقع خلاف بينهم فيمن يكون له فخار وضع الحجر الاسعد فى مكانه حتى كادت الحرب تنشب بينهم واخيرا اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب الصفا فكان محمد أول داخل ويعرف عندهم بالامين فرضوا بحكمه فلما استمع الى خلافهم دعا بثوب ونشره ووضع الحجر فيه ثم قال لهم ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من الثوب ووضعه هو بيده مكانه فتوقفت نذر الشر والخلاف

وحببت اليه العزلة والتأمل والتفكير في الملكوت ثم انقطع في غار حراء قرب مكة الايام والايام ليرضى نفسه المستلهمة مكتفيا بالقليل من الزاد باحثا عن الحق فى هذه الحياة مستغرقا فى تأملاته حتى ينسى نفسه والعالم من حوله وفى أحدى

الشهور الرمضانية التي كان يتحنث فيها بغار حراء أخذت تتمثل له الرؤيا الصادقة فامتلات نفسه أيمانا برؤياه وبينما هو نائم بالغار يوما جاءه الملك فقال له أقرأ فاجابه ما أقرأه فضمه اليه ثم أرسله وقال له أقرأ مرة أخرى فاجاب بنفس جوابه ففعل به مثل ما فعل ثم أعاد عليه الكرة بقوله أقرأ فاعاده جوابه ما أنا بقارىء فقال له الملك (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فقرأها ثم انصرف الملك عنه وقد وعاها ثم استيقظ فزعا وقد اصابته رعدة فخرج من الغار هائما فى الشعاب فسمع صوتا يناديه فرفع بصره الى السماء مذعورا فاذا هو بالملك على صورة رجل قد سد الافاق فرجع الى زوجته خديجة يضطرب خوفا حتى اذا هدأ حدثها بالذى وقع له فقالت له أبشر يا بن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده انى لارجو ان تكون نبي هذه الامة

والله لا يخزيك الله ابدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق وانطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانيا يقرأ الانجيل واخبرته فقال قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذى كان ياتى موسى وأنه لنبى هذه الامة فقولي له فليثبت ثم التقى محمد بورقة وقص عليه ما شاهده فقال له والذى نفسى بيده أنك لنبى هذه الامة ولقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتوذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لانصرن الله نصرا يعلمه .

وفتر الوحى مدة فساورت محمدا المخاوف ثم عاوده متتابعا مسترسلا فقام بالدعوة وتحمل من أجلها مالا يتحمله الا الصديقون والاوفياء من الرسل اصحاب الرسالات الخالدة

واستمر أزيد من عشرين سنة يجاهد في سبيل الدعوة ويناضل ويتحمل من الشدائد اقساها ومن المصائب أعنفها باخلاق عالية وصبر مكين وايمان راسخ وعزيمة لا تفل وقوة الاهمية خارقة الى ان توجت رسالته بالنصر وأخذ الاسلام يشق طريقه في غرب الدنيا وشرقها وشمالها وجنوبها ونشات أمة قال عنها القرآن الكريم (كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)

ولما بلغت الرسالة غايتها ونزل قول الله العظيم اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا جاءه داعي الله واختار النبي (ص) الرفيق الاعلا وأناب الى ربه مطمئنا لجواره مستبشرا بلقائه بعد ان خلف لنا كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وذلك في ربيع الاول سنة 11 هـ م 7 يونيه سنة 632م .

ان رسالة محمد (ص) الخالدة نبراس للهدى وتبيان للحق وشخصيته (ص) مثال رائع لفضائل الاخلاق وحسن السلوك وتربيته لصحابته الكرام تعد نمودجا فريدا في تاريخ الانسانية كلها وقد تمكنت منهم تعاليم الاسلام صافية بريئة فنقلوها بامانة لملايين البشر في المشارق والمغارب فتشبعت بها قلوب حرى وتفتحت بها نفوس عطشى واستلذتها ارواح تائهة امامها جحافل الشرك والوثنية والقسوة والجمود وحلت الفضائل الاسلامية مكان العنصرية والتردى وخلف النور الظلمة فاشرقت الارض بنور ربها وتنسمت البشرية الحرية والطمانينة والكرامة بعد أن تذوقت مرارة الاستعباد والاستغلال وعاشت في فوضى عارمة مدمرة

والفضل كل الفضل فيما حصلت عليه البشرية يرجع للنبي العربي محمد (ص) الذى نفث من روحه الكريمة تعاليم ربه في تواضع وتراحم وتحاب وتاخ لم يشهد له التاريخ مثيلا .

أن كل رسالة لا تثمر ثمرتها الا اذا تجمع حولها انصار لها يومنون بقيمتها وفوائدها وكل رسالة لا تقوم الا بمرشد يقودها ويوجهها ويكون أنصارها تكوينا يتفق وما تنشده وتريده وهكذا كان محمد (ص) قائدا موجها وزعيما متواضعا ومربيا لا نظير له فى التاريخ يعطى من نفسه لغيره ويجهد نفسه لمصلحة الاخرين فى رضى واطمئنان حتى تكون لديه من تشبع بروحه من الصحابة الاجلاء الذين قال فيهم القرآن الكريم (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين أتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه)

والتحمت المحبة والصدق والاخلاص بين المربى ورواده وآتت تربيته ثمارها وأنتجت نتاجها حتى قال فى أصحابه وهو العليم بحالهم فيما رواه الترمذى وابن حبان الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن ابغضهم فبغضبى ابغضهم ومن اذاهم فقد اذانى ومن اذانى فقد اذى الله ومن آذى الله فيوشك أن ياخذه

ويقول هذا النبى المربى فيما رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تطرونى (1) كما اطرت النصارى ابن مريم انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله فهو الكامل فى الفضائل والاخلاق ومع ذلك ينهى أصحابه عن اطرائه فضلا عن اطراء بعضهم لبعض وتجاوز الحد فى ذلك حتى يصبح الاطراء تجارة ونفاقا وكان رسول الله (ص) فيما رواه الترمذى يخزن لسانه الا فيما يعينه ويؤلف أصحابه ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى على أحد منهم بشر ويتفقد أصحابه ويسال الناس عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه

معتدل الامر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا لكل حال عنده

(1) بضم التاء من الاطراء وهو مجاوزة الحد فى المدح

(1) عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه افضل الناس عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده نزلة أحسنهم مواساة وموازرة اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس يعطى كل جلسائه بنصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول قد وسع (2) الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء مجلسه مجلس حلم وحياء وأمانة وصبر لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبى «3» فيه الحرم ولا تنشى (4) فلتاته متعادلين بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب لقد ربى هذا النبى أصحابه على الحق والطاعة فيه ونهاهم عن الباطل والطاعة فيه يتحدث اليهم وهو منطلق المحيا اذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم واذا ذكروا الاخرة ذكرها معهم واذا تحدثوا عن شؤونهم شاركهم حديثهم فيضحك مما يضحكون ويتعجب مما يتعجبون لا يتعالى ولا يتعاظم ولا يتفاخر ليس فحاشا ولا متفحشا ولا صخابا ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح لا ينتصر من مظلمة ما لم تنتهك محارم الله ولا يخير بين امرين الا اختيار ايسرهما ما لم يكن اثما دائم البشر سهل الخلق لين الجانب حييا ليس بفظ ولا غليظ ولا عياب يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسالته ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى او قيام يقبل الهدية ويثيب عليها فكانت اخلاقه لاصحابه قدوة يقتدون بها حتى تمكنت منهم فجعلتهم سادة متواضعين وسامة بريئين ومفكرين قادرين وقادة متسامحين .

روى الترمذى عن انس بن مالك قال خدمت رسول الله (ص) عشر سنين فما قال لى أف (1) قط وما قال لى لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته

فهذا المربى الاكبر الذى خصه الله بالرسالة السماوية كان انسانا قبل أن

(1) بفتح العين اى يعد للامور ما تحتاج اليه
(2) بكسر السين اى عم
(3) لاتعاب من الابن بفتح الهمزة وهو العيب
(4) اى لا تشاع ولا تذاع

يكون رسولا ولكن انسانيته كانت انسانية كريمة مصقولة متفتحة هادئة بريئة ملهمة وهى التى هياته لتلقي وحى السماء هذا الوحى الذى اختار مكانه براءة وقوة وحزما وصمودا في خير رجال البشرية وأقواهم عملا وفضلا ورجل هذا شانه لابد أن يلقى من معارضيه أصحاب المجد المزيف والرياسة المصنوعة كل معارضة ومنازلة دفاعا عن مكانتهم التى اكتسبوها فى وسط وثنى جامد لكنه بحكمته وصبره وثباته استطاع أن يشق الطريق لدعوته ويربي أفضل الرجال عليها حتى تغلب على جميع الصعوبات ورسخت دعوته فى النفوس وتحمل لاجلها من المكروه مالا يكاد يصدقه المستهترون

ان المربى الاكبر (ص) لم يكن من طلاب الدنيا والجاه ولو أراد ذلك لناله وانما كان من دعاة الحق والعدل الذين يصعدون للعواصف مهما كانت قوتها وللزوابع مهما كانت شدتها ويحرصون على الاصلاح مهما تحملوا فى سبيله من أذى ومهما ذاقوا من أجله من عذاب فى سمو روحى نادر المثال وقوة في الحق لا تلين وزهد فى الملذات لا يتحملها الا من آتاه الله حكمة من عنده فوق ما عند رجال الفلسفة والمعرفة المكتسبة وعقيدة سليمة من الزيغ والجحود والنوايا المنطوية على الوصولية

ومن يتأمل قول هذا المربى الكريم وهو فى حالة وداع الدنيا لابنته العزيزة عليه فاطمه لا ضير على أبيك بعد اليوم يدرك ما تحمله هذا الرسول من مآسي وما تجرع من مكاره لتكوين نواة انسانية صالحة لقيادة البشرية وانقاذها من ضلالها والتوائها وتعفنها نعم لا ضير على أبيك بعد أن أدى رسالته ليستريح عند ربه من نعرة العنصرية وجحيم الوثنية والقسوة وجحود الانسان الظلوم أنه لا ضير على أبيك وقد رأى ثمرة غرسه توتى أكلها وشاهد بعينه أعداء الاسلام بالامس وهم يقدمون انفسهم قربى لله ووفى بوحي ربه للبشرية لتستضيء بنوره الوهاج بل لا ضير عليه أن ينقلب الى ربه راضيا مرضيا مطمئنا

وهل استطاع انسان فى هذا الوجود أن ينال ما ناله محمد (ص) من الرضى

وهل يمكن لانسان فى هذا الوجود أن يتحمل ما تحمله محمد (ص) ثم يعزف عن الملذات وهل فى مقدور بشر أن يناضل لتأسيس دولة من لا شيء ثم لا ينصب نفسه على الناس وهل يمكن أن نتصور انسانا كمحمد (ص) تنطق باسمه الشفاه في المشارق والمغارب بحب واجلال لا تخدشه بخدشة ولا تلمزه بلمزة

وهل ظهر مربى في التاريخ الانسانى العريض أكتسب من العزة فى تواضعه ما اكتسبه محمد (ص) بنضاله المتواضع الشريف

لننصت جيدا الى هذه الاية الكريمة من سورة المائدة لندرك مقدار الرضى فى نفس محمد (ص) وهى تتحدث عن رسالته الخالدة اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا

وانصرف محمد (ص) الى ربه وخلف فى البشرية ميراثا لا يقدر بمقدار ميراثا أثر فى سير تاريخ البشرية وهداها لنور العلم والعرفان وأخرجها من ظلمات الجهل والغواية وفتح عقلها على الكون وأسراره وهذب أخلاقها ورفع عنها العبودية فى جميع اشكالها لتنطلق الى تحقيق الغرض الذى وجدت من أجله على هذه الارض ولتومن بربها وتستريح فى عيشها وتسمو فى تفكيرها وتبتكر كل ما يصلح شأنها ويزيل من طريقها العقبات والاشواك ولتؤنس حكما يتجانس فيه الدين مع الدولة ويرتبطان ارتباطا وثيقا يحقق الغرض الروحي والمادى ويجمع بينهما جمعا فيه سعادة الدنيا والاخرة

أن المربى الاكبر عليه السلام لم يكن يلقي تعاليمه على الناس ويبقى فى حل منها وانما كان يبدأ بنفسه ويأهله وأقاربه ليكونوا قدوة لغيرهم فى الشدة والرخاء فى السعادة والشقاء فى الالم والنعيم فى الحق والعدل والمساواة في الاخوة الصادقة التى تجتمع على الحب والصدق والاخلاص والتفانى فى خدمة الصالح العام